الإسلام دين حياة لأحياء (*)

الإسلام دين حياة، نزل تكريماً ورعاية للحياة والأحياء.. يخطىء خطأ كبيرا، من يظن أن الإسلام دين أموات، معنى فقط بالآخرة ولا عناية له بالحياة والأحياء.. فالإسلام دين حياة لأحياء، لا يزهد في الحياة على هذه الأرض، ولا يحتقرها أو يزدريها.. أخبر في قرآنه المجيد أنه سبحانه قد خلق الموت والحياة ليبلونا أينا أكثر عملا، فقال عز من قائل : " تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ " (الملك ١، ٢).. خطاب الآية الكريمة موجه إلى الإنسان، الذى كرمه الله سبحانه وتعالى واستخلفه في الأرض وجعل إليه عمارة الحياة.. يقول في محكم التنزيل : " وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً * يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْلَئِكَ يَقْرَؤُونَ كِتَابَهُمْ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً. " (الإسراء ٧٠، ٧١).

إن قيمة ومنزلة المسلم، مستمدة أصلا من الحياة.. فحياته على الأرض هي المحك الحقيقي لميزانه.. اكتتاب الإنسان لآخرته، إنما

---

* الأزهر ٢٠٠٦/١٢/٨

يجرى فى حياته الدنيا.. الحياة هى المجال الوحيد لاكتتاب الآدمى، على قدر سعيه وسلوكه وعطائه والتزامه الخيرات فى دنياه، على قدر ما يكتتب بها فى آخرته.. لا مجال فى الآخرة للاكتتاب، فالإنسان يكتتب فى الحياة بما يسعه مخيراً فى سعيه بين الخير والشر، وبين المعروف والمنكر، على قدر اختياره وسلوكه فى دنياه، يكون حسابه فى أخراه.. الآخرة دار حساب لا دار امتحان.. الامتحان الذى يواجهه الإنسان هو فى هذه الحياة التى يحمل فيها أمانته باختياره.. هذه الأمانة التى قال فيها الحق تبارك وتعالى : " إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً " (الأحزاب ٧٢).. فى هذه الحياة الدنيا معقد رجاء الآدمى والاختبار الأساسى لمدى إدراكه لنعمة الحياة التى أنعم بها عليه الخالق البارىء عز وجل إنعاماً مجانيا لم يقتض عنه سبحانه أجراً ولا مقابلاً.. حياة الإنسان على هذه الأرض هى المحك والاختبار الأساسى لمدى اغتناسه من عدمه الفرصة الموهوبة له فى الدنيا فى تنمية عقله وملكاته وروحه، وجنى الرصيد الذى توزن به حياته وأعماله.. إن قيمة الحياة تكمن فى قدرة الآدمى على السعى والاجتهاد وجزيل البذل والعطاء فيها، وعلى اختيار الحق والخير والمعروف من بين البدائل المختلفة التى تعرض للإنسان فى رحلته.. هذا الاختيار الرشيد هو أساس التكليف فى الإسلام.. فالإنسان المكلف فى الإسلام - هو الإنسان المسئول، القادر بعقله ومداركه على الموازنة والاختيار والمفاضلة الفاهمة الواعية المريدة بين الخير والشر، وهذه القدرة هى المرآة الحقيقية لحياته التى يصنع فيها قدره وينمى رصيده المخزون للآخرة، فبغيرها لا توزن حياته ولا توزن أعماله..هذه الحياة

الدنيا هى الفرصة الوحيدة للآدمى لكتابة مصيره فى آخرته.. بعدها ينـزل الستار ويتوقف كدح الإنسان الـذى كدحـه وسعيه الـذى سـعاه.. ففـى الحياة الأخرى لا تقارع ولا امتحان بين الخير والشر.. إن الجنـة خيـر محض.. لا مجال فيها لاختيار أو مفاضلة بين خيـر وشـر، ولا محـك تعـرض عليـه قـدرة الآدمـى وميولـه ورغباتـه ومآربـه وأهـواؤه وانعكاساته وأفعاله وردود أفعاله.. لا ميزان يعرض عليه عقله أو روحه.. تساميه أو انحداره، الآدمى فى الجنة ميسور الثواب والنعيم بلا جهـد ولا مجاهدة ولا عناء ولا مكابدة •

الجنة هـى دار القـرار، ونعيم الأبرار.. لا شر فيها، ومن ثـم لا امتحان ولا اختيار بين خير وشر.. لا يوجد فى الجنة خيار أو موازنـة أو مكابدة أو معاناة ما بين الإقدام على هذا أو الإحجام عن ذلك.. فالجنة دار جـزاء ومكافأة وثـواب صرف متلمـا كل مـا فيها خير صـرف.. لا صراع ولا تنازع فى الجنة بين خير وشر، ولا امتحان للمخلوق يوازن فيه بين الخير والشر.. لا انتصار لأحد ولا هزيمة لأحد.. انتصار الأبرار قـد اكتتبوا فيه وحققـوه وارتسمت خطوطـه ومعالمه ونتائجـه فـى الحيـاة الدنيا، على نقيضهـم من فارقوا البرّ والمعروف فباءوا بالخسران !.. لذلك كانت الحياة هى هبة الله تعالى وامتحانه أيضا للأحياء !!..

المسلم السوى يعلم أن عطاءه علـى الأرض هـو معراجـه إلـى السمـاء.. بحياته على أديمها تتحدد صفحته ومنزلته.. كل خـط يخطـه فيهـا هو رصيده الحقيقى يوم يقوم الأشهاد.. فلا أمل له فى حسن الثواب والنعيم إلاّ بما خطه فى حياته الدنيا ونجح أو أخفق فى تسطيره فى صفحته على ما أمره ربه سبحانه وتعالى.. لن يغنيه يوم الحساب لقب ولا مال ولا

جاه ولا سلطان.. وإنما هذه الصفحة التى خطها فى إخلاص واستقامة ومعرفة حقه وتواضع وعرفان بحق الله تعالى وحقوق الناس.. فالحياة فى نظر الإسلام - أثمن نعم الله جلت حكمته، وهى لذلك شيء غال يجب على المسلم السوى أن يحفظه وألا يهدره أو يفرط فيه !!

هذه الحياة الغالية هى صك الآدمى وكتابه، هى الامتحان الحقيقى، وصفحته التى يسطرها فيها هى المعبر وجواز المرور إلى ما وعد به القرآن المجيد الذى يقول : - " إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ " (فصلت ٣٠ ــ ٣٢)

يلحظ المطالع للقرآن الكريم أنه قد قرن كثيراً فى آياته بين الحياة والموت.. وبين الدنيا والآخرة، وأورد أن الحياة الدنيا لهو ولعب وزينة وتفاخر ومتاع الغرور، وأن الآخرة خير وأبقى.. بل هى الحياة لمن يعرفون.. فى القرآن المجيد : " وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ " (العنكبوت ٦٤)... سعى الإنسان واكتتابه فى الدنيا لا يجيز أن يستحبها أو يؤثرها على الآخرة، ولا أن تغره الدنيا أو يغره بالله الغرور.. فمن كان يريد حرث الدنيا يؤته الله منها ولكن ما له فى الآخرة من نصيب.. هذه المقارنة لا تعنى تحقير الحياة والازدراء بها، وإنما تنغيا فى حكمة بالغة لفت نظر الآدمى إلى القيمة الحقيقية للحياة.. وإلى اتخاذها سبيلاً جاداً صادقاً للآخرة التى هى دار القرار، وخير وأبقى.. والحياة لا تكون سبيلاً نافعاً للآخرة، ولحسن

المآب فيهـا - مالم تكن حياة أمينة جادة صادقة فاعلة معطـاءة.. لا يفقـد فيها الآدمى حبله المتين بالله عز وجل..

أرادنا القرآن المجيد ألاّ نتخذ من الدنيا متاعاً ولهـواً ولعبـاً وزينـةً وتفاخراً وغروراً.. ألاّ يطمس سعينا فيها على القيم العليا لمنهـاج الحيـاة الجادة الرصينة والتى إليها حُسن المآب فى الآخرة.. ألاّ نضحى بالخالـد الباقى طلباً لأعراض ومتع الدنيا الزائلة.. أن ندرك بذلك أن الحيـاة هـى نعمة كبرى.. وهى نعمة لأنها ابتلاء وامتحان حقيقى للمسلم السوى ليحسن مآبه فى الآخرة..

فغلو وقيمة الحياة فى الإسلام ليس لأنها فرصة للهو واللعب والتباهى والتفاخر والعبثية.. فالإسلام لا يطلب الحياة للحياة، ولا تتساوى فيه كـل حياة مع أى حياة.. الإسلام لا يحفل ولا يعتنى بالحيـاة العدميـة التافهـة الخالية من المعنى الجامع، التى تستغرق الآدمى فيهـا الـشواغل الذاتيـة التافهة والمآرب الشخصية المحصورة فى النظر الضيق للسباق والرغاب والمطالب والجنس والمال والأبهة والسلطان والتميز والتفرد.. هذه الصورة للحياة هى والعدم سواء.. لا قيمة لها فى الإسلام، وليست مقـصد الحـق سبحانه وتعالى الذى خلق الموت والحياة ليبتلينا ويختبرنا أينا أحسن عملا..

الصورة الإسلامية للحياة لا توجـد إلا مع وجود المعنـى الجـامع، وهو الله عز وجل.. والولاء لله عز وجل، فحين يتعلق الآدمى بربه، ويتجه إليه، ويستحضره فى حركته وسكونه.. فى سعيه وعطائـه.. فـى فكـره وتدبره.. تسرى روح الله بهذا المعنى الجامع فى حياة الإنسان فى كلياتهـا وجزئياتها.. ومن البداية للنهاية.. فحياة المسلم السوى تبدأ من الله تعـالى وتنتهى إليه، لذلك لايحار المسلم السوى قط - بحياته.. ولا يعتريه قـط أى

إحساس بالخواء أو التفاهة أو قلة جدوى حياته مثلما يشعر كثير من أبنـاء هذا الزمان فى الحضارات التى طغت عليها المادية !.. بدون القيم والمعنى الجامع - يفقد الآدمى البوصلة والسقف ويغشاه الإحساس بالعدميـة واللا جدوى !!

هذه القيمة الحقيقية والجادة للحياة فى الإسلام، تتوارى بغير قصد فى خطاب الدعوة الإسلامى حين ينصب فقط فى الموت والقبر ويحقر الحيـاة ويلتفت عن قيمة " الحياة " الجادة الغالية التى هى الأساس فى الإسـلام ومعراج المسلم السوى إلى السماء وإلى الحياة الأخرى.

حقيق بالمسلـم أن يلتفت إلى معنى وقيمة وجـدوى وغلو الحيـاة.. أن يدرك أنهـا الفرصـة والاختبار والمحك الحقيقـى لوجـوده ذاته.. أن انتماءه للمعنى الجامع وهو الله عز وجل مرهون بقدر عطائـه وإخـلاص نيته واستقامة عمله والتزامه بكل القيم السامية النبيلة التى رسمها الإسـلام للحياة والأحياء.. هـام للمسلم أن يعرف أنه حين تقـوم القيامـة وينـزل الستار، فلـن يكـون فى جعبته ما يتقدم به سـوى كتابه هـذا.. مقدار ما استطاع أن يسطره فى هـذه الحياة لتثقـل به أو تخف موازينه.. وصدق عز من قائل : -

" فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيهْ * إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيهْ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * فِـي جَنَّـةٍ عَالِيَـةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ * وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِـسَابِيهْ * يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ * مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهْ " (الحاقة ١٩/٢٩)